IV

أ. د. حياة قارة :

– شرح مشكل ألفاظ مقامات الحريري ومعه نبذ من شرح غريب مقامات الحرير لأبي طالب عبد الجبّار بن محمّد بن علي المعافري القرطبي (ت566/1170)
–ط. الدّار البيضاء، 2005 في 192ص، تقديم د. حياة قارة .

لقد شغفت بالمقامات منذ بضع سنين، فقرأت مقامات الهمذاني، ومقامات الحريري، ومقامات السرقسطي، وما تعاقب عليها من مقامات أندلسية: مطبوعة ومخطوطة ، ثم اطلعت على الشروح المتوفرة: مطبوعة ومخطوطة ، وختمت هذه الرحلة المقامية بالدراسات التي أنجزت حول المقامات في المشرق والمغرب العربيين، والغرب الأوروبي والأمريكي.

ولا أنكر أن بداية الرحلة كانت بدافع الفضول المعرفي، والبحث عن الغائب الممثل في الحاضر الذي يجذب القارئ برونق لفظه، وسحر بيانه، وترجيع سجعه، ومن ثم سرعان ما تحولٍ الفضول إلى قناعة راسخة، وإصرار عنيد لمتابعة الرحلة، ووصل ما بذله الباحثون شرقًا وغربًا من جهود علمية، وتكملة ما قدموه من دراسات أدبية رصينة متنوعة .

ولكي أشرك القارئ معي في هذه الرحلة الاستكشافية في غياهب المعرفة الإنسانية، ارتأيت من المفيد أن أشير، في عجالة وإيجاز شديد، أرجوألا يخل بمقاصد هذا البحث، إلى الاتجاهات الرّئيسيّة التي ميزت هذه الدراسات، وأقصد هنا تلك التي ركزت اهتمامها على المقامات الأندلسية، حتى نتمكن من رصد الجهود العلمية المتواصلة في ميدان الدراسات الأدبية المتعلقة بالمقامات في الأندلس، السابق منها واللاحق، وتتحدد فيما يلي :

1- دراسات وصفية تاريخية، عمد فيها أصحابها إلى ربط المقامات بمجالها التاريخي في أبعاده الثقافية والسياسية والاجتماعية، وتختلف هذه الدراسات من حيث درجة توظيف هذه الأبعاد، لكنها تتشابه في تأكيد وترسيخ دعائم العلاقة الثنائية التي تتفرع إلى مركز وهامش، حيث تصبح المقامة الأندلسية، تبعًا لذلك محاكاة وتقليدا للنموذج المشرقي.

2- دراسات انتهج فيها أصحابها منهج المقارنة بين الثقافات والحضارات، وتمثل المقامات العربية جزءا من اهتمام هؤلاء الباحثين، من حيث تأثير هذه المقامات، بوصفها جنسًا أدبيًا، في تطور قصص البيكاريسك (الشطار) الإسباني، ومن ثم في القصص الأوروبي بأكمله .

والملاحظ أن هذه الدراسات أعادت للمقامات الأندلسية، بشكل خاص، بريقها وجاذبيتها في الحياة الأدبية المعاصرة، ولاسيما أننا نعيش اليوم عالمًا منفتحًا على الثقافات والحضارات يغري بالدراسات المقارنة .

3- دراسات اتجه فيها أصحابها نحو توظيف التحليل الأسلوبي: تحليل الإيقاع، والبحث في أوجه التقاطع، عبر التماثلات والاختلافات للمستويات التركيبية والصرفية والمعجمية، وربطها على المستوى الدلالي بأشكال التجاور والتشابه ومختلف أجناس المجاز، حيث يغدو هذا التحليل مفهومًا نقديًا ومعيارًا تقويميًا.

يتبين إذن أن اختيار هؤلاء الباحثين للمقامة موضوعًا للدراسة والبحث، ينضوي على اختيار نقدي للعناصر والمظاهر التي يتكون منها هذا الجنس الأدبي الذي لا يزال في حاجة إلى أبحاث كثيرة جادة تستنطق السحر الكامن في هذا البناء الذي تتجاور فيه الأضداد، وتتحدُ فيه المتناقضات .

وليس في نيتي الآن تقديم دراسة في هذا الاتجاه، وإنما أرجئها إلى فترة لاحقة، تكون فيها قدمي راسخة، وقراءتي واسعة ومتنوعة، وأحكامي نابعة من نصوص مقامية أندلسية : مطبوعة ومخطوطة .

ورأيت، للوصول إلى تحقيق هذا الغرض النبيل، أن أجهز نفسي أولا، لتقديم نص فريد، يمثل حلقة هامة في هذه السلسلة المتعلقة بضرورة الاهتمام بالمقامات الأندلسية التي تشكل جزءا هامًا من النسيج الثقافي في الأندلس، في وحدته وتنوعه.

ولعله من المفيد هنا توجيه البصائر نحو مزية البحوث اللغوية، وفضلها في إيضاح المعاني الغامضة، وهذا ما يؤكده كتاب أبي طالب عبد الجبار المعافري الذي يضم بين دفتيه شرحين هامين على مقامات الحريري منّ الله علينا بالوقوف عليهما، والسهر على دراستهما، وتحقيقهما ونشرهما.

إنهما يشهدان لأبي طالب بالإمامة في اللغة، مع التذوق الرفيع، والإحساس المرهف، ثم الإدراك العميق لقيمة الكلمة ودورها في بناء النص المقامي، فمن خلال اللغة حاول أبو طالب أن يبحث عن الاختلاف الذي يميز مقامات الحريري، ومن ثم يخلق قيمتها.

وهكذا نلاحظ أنه بإزاء الحريري المشهود له بالمهارة اللغوية العالية، وبالإبداع والابتكار، نجد شارحًا مسلحًا بكفاءات لغوية تشهد له بالإمامة فيها، يتنبه إلى مهارة التلاعب باللغة الحاضرة في ذهن الحريري أثناء كتابة المقامات، وعلاقتها بالتداعيات الدلالية، مما دفعه إلى وضع هذين الشرحين اللذين حدد فيهما تحديدًا معجميًا دقيقًا دلالة الغريب والمشكل من الألفاظ الواردة في تلك المقامات .

ونحن نعلم أنّ إبراز وتوضيح الدلالة اللغوية الحرفية التي لا تُؤتَى إلاّ بالتمحيص اللغوي، مرحلة ضرورية وهامة، بل هي عتبة تسوقنا نحو قراءة النصوص وتأويلها، إذ لاشك أن ثمة حدودًا قاموسية يجب امتلاكها حتى يتسنى تجاوزها نحو فضاء التأويل الاستعاري.

ومن ثم فإن تذوق لغة المقامات لا يتم إلا بالانخراط في المجهود التفسيري الذي قام به المؤلف لأرفع النصوص الأدبية لغة وبلاغة وتعجيزًا حسبما ذهب إلى ذلك الحريري نفسه في إحدى مقاماته .